أسباب تجديد التفكير الديني عند "محمد إقبال" ومنطلقاته

م.م.د. عبدالرحمن طه بديوي

ديوان الوقف السني/ الفلوجة

Assist. D. Eabdalrahman tah badiwi
rahmanalalwany@yahoo.com
009647710539390

الملخص

كان الركود الذي ساد التفكير الديني في الكثير من المجتمعات الإسلامية من أهم ما يجب أن يلتفت إليه دعاة الإصلاح الديني؛ وذلك لما يؤدي إليه هذا الركود من التقوقع وضيع الأمة في هوة التخلف الحضاري، وما يترتب على ذلك من فقدان الأمة لهويتها ودورها الحضاري.ولقد آسّم المجتمع الذي عاش فيه (محمد إقبال) بهذه السمة، إذ إنَّ غالبية المسلمين قد ضعفت صلتهم بدينهم، ورافق ذلك شعورهم بانبهار كبير بالحضارة الغربية، وكان هذا الشعور نابعاً عن الحاجة الفطرية القائمة في نفوس البشر إلى المرجعية الحضارية، فأراد إقبال من خلال محاولته التجديدية أن يوضح للمسلمين المنطلقات القائمة في دينهم، والتي تتمثّل بـ (القرآن الكريم والسنة النبوية المطهّرة والإجماع والقياس)، هذه المنطلقات التي بإمكانهم أن يقيموا من خلالها حضارة هي من أعظم الحضارات، ويتفوقوا بها على جميع حضارات الأمم.حاول الباحث في هذه الصفحات تسليط الأضواء على قضية تجديد التفكير الديني عند (محمد إقبال)، وآلية عمله بها، والكشف عن أهم المنطلقات الفكرية والدينية التي صاغت هذه القضية في فكره. **الكلمات المفتاحية:** تجديد، منطلقات، جمود.

Summary

The stagnation that has prevailed in religious thinking in many Islamic societies is one of the most important things that advocates of religious reform should pay attention to. This is due to the fact that this stagnation leads to the inclusion of the nation in the abyss of civilizational backwardness, and the consequent loss of the nation's identity and its civilized role. The society in which (Muhammad Iqbal) lived was named with this characteristic, as the majority of Muslims have weakened their connection to their religion, and this was accompanied by their feeling of great fascination with Western civilization, and this feeling stemmed from the innate need existing in human souls for a civilizational reference, so Iqbal wanted through his attempt The renewal is to explain to Muslims the existing principles in their religion, which are represented by (the Holy Qur'an, the purified Sunnah of the Prophet, consensus and analogy). These are the premises through which they can establish a civilization that is one of the greatest civilizations, and by which they excel over all the civilizations of nations. In these pages, the researcher tried to shed light on the issue of renewing religious thinking at (Muhammad Iqbal), and its mechanism of action, and to reveal the most important intellectual and religious premises that shaped this issue in his thought**Keywords**: renewal, starting points, stagnation.

أولاً: المقدمة:

إن قضية الجمود في التفكير الديني هي من أخطر قضايا الأمة في الوقت الراهن؛ وذلك بسبب ما ينبني عليها من تخلّف في الفهم والوعي والإدراك لتاريخ الأمة وحاضرها ومستقبلها، وذلك بدوره يؤدي إلى التقوقع والضياع بدلاً من الارتقاء والنهوض الحضاري الذي حثّنا عليه ديننا الحنيف. وحينما نستعرض الأعلام الذين قادوا النهضة العلمية والفكرية الحديثة فإننا نلحظ بينم علماً فريداً فذّاً، يشرق من كلماته نور الهمة والعزم ليصنع نهضة إسلامية فكرية تنشر الإسلام وتعلّمه وتقوم بواجبه، وتحاول معالجة التخلّف الفكري الذي تعاني منه الأمة الإسلامية، إنه الشاعر والفيلسوف والأديب الدكتور محمد إقبال. لقد كان لمحمد إقبال بدعوته إلى تجديد التفكير الديني في الإسلام أثرٌ واضح في ملايين الناس على اختلاف طبقاتهم، فقد قاوم وناضل وسعى سعياً حثيثاً لاستقلال المسلمين في الهند، وقيام دولة الباكستان التي تضمّ اليوم تجمعاً من أعظم تجمعات المسلمين في العالم. فترك إقبال بصمات واضحة في صياغة عقليةٍ مسلمة واعية لثقافة عصرها، تستمدّ قوّتها من قاعدتي الألم والحسرة على حال المسلمين وتخلّفهم، عقلية قامت تنادي المسلمين بأن يراجعوا حساباتهم ليُدركوا من أيّ ناسٍ هم، وليعرفوا قيمة التراث العظيم الذي أهملوه وتخلّوا عنه، فأصبح في أيدي غيرهم من الغرب الذي استطاع أن يصنع تمدّناً بشرياً هائلاً. وبالنظر إلى الحال السابق الوصف فلا بدّ من ثورة فكرية تتمثّل بحركة إصلاحية، تُقاوم الفتور الفكري الذي عمّ المسلمين وأردى حالهم، ولا بد كذلك لهذه الحركة الإصلاحية من أن تكون على مستويات متعددة، كالفكر والثقافة والسياسة والمدنية، من هنا انبرى عدد من المفكرين والمصلحين الذين أخذوا على عاتقهم توعية الناس، وتجديد أفهامهم لدينهم، فكان (محمد إقبال) واحداً من هؤلاء، بل كان رائداً في الحركة العقلية الفكرية التي أدّت دوراً مهماً في خدمة المسلمين ومحاولة النهوض بهم.

ثانياً: أهمية البحث وأسباب اختياره:

تعدد العوامل التي أوحت لي بأهمية هذا البحث، ودفعتني للكتابة فيه، وكان من أهمها:

١- قلّة هذا النوع من الأبحاث ضمن المكتبة الإسلامية مع الحاجة الملحّة إليها.

٢- الكشف عن العوامل التي صاغت فكرة تجديد التفكير الديني عند (محمد إقبال).

٣- تمييز أهم المنطلقات التي طرح إقبال هذه الدعوة من خلالها.

٤- تمييز العوامل الأساسية والثانوية التي ارتكز عليها محمد إقبال في دعوته التجديدية.

ثالثاً: مشكلة البحث:

تتحدد مشكلة البحث في هذه القضية بالتساؤلات التالية:

١- ما هي البواعث التي صاغت فكرة التجديد في فكر محمد إقبال؟

٢- ما هي المرتكزات الدينية التي ارتكز عليها في دعوته؟

٣- ما هي المنطلقات الفكرية التي ساعدت محمد إقبال على بناء دعوته الإصلاحية؟

رابعاً: أهداف البحث:

يهدف البحث الإجابة عن التساؤلات السابقة، حسب ما يلي:

١- بيان البواعث الفكرية التي صاغت فكرة التجديد في فكر محمد إقبال.

٢- إيضاح المرتكزات الدينية التي اعتمدها إقبال في دعوته.

٣- بيان المنطلقات الفكرية التي ساعدت محمد إقبال على بناء دعوته الإصلاحية

خامساً: منهج البحث:

تم الاعتماد في البحث على ركيزتين منهجيتين هما: الاستقراء والتحليل:أما الاستقراء فبتتبع المعلومات التي تتصل بالفكرة محل البحث ضمن مؤلفات (محمد إقبال)وأما التحليل فبتحليل المعلومات المجمّعة للكشف عن المنطلقات الإصلاحية عند إقبال.

سادساً: خطة البحث:

جاءت خطة البحث مقسمة إلى تمهيد وثلاثة مباحث حسب ما يلي: **تمهيد:** حول معنى التجديد في الفكر الإسلامي. **المبحث الأول: محمد إقبال وتكوينه الفكري وتراثه. المطلب الأول:** مولد إقبال ونشأته وتعلمه: **المطلب الثاني:** فلسفة محمد اقبال**المطلب الثالث:** شعر محد إقبال: **المطلب الرابع:** مؤلفات إقبال وانتاجه الفكري والثقافي **المبحث الثاني: دوافع التجديد عند محمد إقبال.المطلب الأول:** نظرة محمد إقبال إلى واقع المسلمين: **المطلب الثاني:** الضعف الفردي والانحلال الجماعي**المطلب الثالث:** معرفة النفس الإنسانية**المطلب الرابع:** حثُّ القرآن الكريم على النهوض بأمر هذا الدين**المطلب الخامس:** نظرة محمد إقبال إلى حقيقة الإيمان: **المبحث الثالث: المنطلقات التجديدية عند محمد إقبال. المطلب الأول:** القرآن الكريم: **المطلب الثاني:** السنة النبوية: **المطلب الثالث:** الإجماع: **المطلب الرابع:** القياس (الاجتهاد): **خاتمة:** تتضمن النتائج والتوصيات.

التمهيد: حول معنى التجديد في الفكر الإسلامي.

التجديد لغةً: تصيير الشيء جديداً، وجدَّ الشيء أي صار جديداً، وهو خلاف القديم[١]، وجدَّ فلانٌ الأمر وأجدّه واستجدّه إذا أحدثه.[٢] فالمعنى اللغوي يدور على وجود شيء كان على حالة ما ثم طرأ عليه ما غيره، فإن أُعيد إلى مثل حالته الأولى التي كان عليها قبل أن يبلى كان ذلك تجديداً.

التجديد اصطلاحاً تنوعت أقوال العلماء في تعريفهم للتجديد، وتعدد صيغهم في ذلك، لكنها لم تخرج عن ثلاثة محاور كما يلي:

المحور الأول: يتضمن إحياء ما انطمس واندرس من معالم السنن، ونشرها بين الناس، وحملهم على العمل بها. يقول العلقمي: ((معنى التجديد: إحياء ما اندرس من العمل من الكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما)).[٣] ويقول أبو الأعلى المودودي: ((المجدد كل مَن أحيا معالم الدين بعد طموسها، وجدد حبله بعد انتقاضه)).[٤] **المحور الثاني:** ويتضمن قمع البدع والمحدثات وتنقية الإسلام مما علق به من أوضار الجاهلية، والعودة به إلى زمن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام. قال المناوي: ((يجدد لها دينها: أي يبين السنة من البدعة، ويكثّر العلم وينصر أهله، ويكسر أهل البدعة ويُذلّهم)).[٥] ويقول المودودي: ((التجديد في حقيقته: هو تنقية الإسلام من كل جزء من أجزاء الجاهلية، ثم العمل على إحيائه خالصاً محضاً على قدر الإمكان)).[٦]

المحور الثالث: يدور معنى التجديد فيه على تنزيل الأحكام الشرعية على ما يجدُّ من وقائع وأحداث، ومعالجتها معالجةً نابعة من هدي الوحي. يقول عبد الفتّاح إبراهيم: ((التجديد يعني العودة إلى المتروك من الدين، وتذكير الناس بما نسوه، وربط ما يجدّ في حياة الناس من

أمور بمنظور الدين لها، لا بمنظارها للدين)).(٧) فمن مجموع التعريفات السابقة يمكننا صياغة تعريف جامعٍ له على النحو الآتي: تجديد التفكير الديني يعني إحياء ما اندرس من الدين وبعثه، وتخليصه من البدع والمحدثات، وتنزيله على واقع الحياة ومستجداتها.

المبحث الأول: محمد إقبال وتكوينه الفكري وتراثه.

المطلب الأول: مولد إقبال ونشأته وتعلمه:

ولد (محمد إقبال) في مدينة (سيالكوت) الهندية الواقعة في ولاية بنجاب لتي تشكّل مقاطعة كبيرة ضمن بلاد الهند، وكان ذلك سنة ١٨٧٧م، وكان إقبال سليل بيت معروف من أوسط بيوتات البراهمة في كشمير، وقد أسلم جدّه الأعلى قبل مائتي سنة من مولده. ومنذ إسلام جدّه عُرف ذلك البيت بالصلاح والتصوّف، وقد تلقّى إقبال من أبيه تأثيراً كبيراً وحُبّاً عميقاً جعل منه رجلاً متصوّفاً ذا حكمة ونظر وفكر. انتسب (محمد لإقبال) إلى كلية الفلسفة في الجامعة الأميرية، وتعلّم لغتي العربية والفارسية، ثم سافر إلى إنكلترا ليُكمل درب الدراسات العليا في الفلسفة، حيث حصل على الماجستير، واتّجه بعدها إلى ألمانيا فحصل فيها على الدكتوراه في الفلسفة، وذاعت شهرته في أوربا، وصار يترنّم فيها شعراً بأفكاره الإسلامية.(٨)

المطلب الثاني: فلسفة محمد اقبال

لو تأملنا في فلسفة محمد اقبال التي طرحها في مفهوم الذات ونفي الذات لعلمنا أنها فلسفة بسيطة تأخذ طابعاً فردياً اجتماعياً في آن واحد ولها تطبيقات من الناحية الثقافية والسياسية والاقتصادية، ويمكننا أن نفهم ذلك من خلال مفهوم (التقارب والتضامن) والمقصود منه تقارب الشعوب بعضها مع بعض وتضامنها من أجل الحفاظ على هويتها. فقد لاحظ (محمد إقبال) وجود الكثير من المحاولات تدعو إلى التضامن والتقارب وكل هذه المحاولات موجودة خارج مفهوم العالم الاسلامي، فمثلاً أوربة في الميدان السياسي نجدها تسعى إلى الوحدة دون أن تتخلى عن هوية أقطارها، وكذلك تحالف الأمم المتحدة هي محاولة للتقارب والتعاون بين الشعوب لتحقيق الوحدة بين الجنس البشري، ولو أننا تخيلنا حدوث هذا التلاحم والتوافق بين الشعوب الإسلامية فإن هذه الوحدة هي التي يتطلع إليها محمد إقبال لذلك فإن (إقبال) يرى أنه بإمكان مجموعة بشرية أن تتوحد وتصون أصالة بعض الوحدات الصغيرة المجتمعة فهنا تزداد الدعوة إلى صيانة قيمتها الذاتية (٩)ولكنه يدرك تماماً أن تحقيق هذا الأمر يتطلب العمل الدؤوب من الفرد والمجتمع، فيصرّح بأنه لا بد للإنسان أولاً من عزم لا يتأتى إلا بتركيز الذات وتقويتها ودعمها بالعمل والحركة الدائبة والاندفاع المغامر نحو المخاطر والجهاد في سبيل الله وإلا فالحياة لا تكون سوى حلقة من دخان (١٠)ولقد كانت فلسفته في مجملها فلسفة إسلامية، واستهل محاضراته الفلسفية المعروفة بقوله: ((أحاول بناء الفلسفة الدينية الاسلامية بناء جديداً، آخذاً بعين الاعتبار المأثور من فلسفة الاسلام إلى جانب ما جرى على المعرفة الإنسانية من تطور في نواحيها المختلفة))(11) كما أن القارئ لأفكار محمد إقبال يجد في فلسفته أسلوباً علمياً يؤثر في كافة الناس حتى غير المسلمين منهم وحين يقلّب القارئ صفحات إقبال الفلسفية يجد أنه قد عمد في كثير من الأحيان إلى قلب الكثير من المعاني الأعجمية والعربية القديمة واتخذ منها رموزاً تدل على مدلول شخصي في فلسفته فمثلاً كلمة (الفقر) وهي بمعناها العربي والعجمي تدل عادةً على التقتير والحرمان لكنه غير مضمونها بأن استعملها للدلالة على (السيطرة الأخلاقية)،كذلك كلمة (خودي) التي كانت مرادفة للانطواء على الذات لكن حين استعملها أعطاها معنى (احترام الذات).(١٢) وخلاصة مذهبه الفلسفي تتمحور في الأمور التالية:

١- أن الذاتية هي جوهر الكون وأساس نظامه وهي تمثل سر الحياة فيه.

٢- وأن الذاتية هذه تحيا من تخليق المقاصد وتوليد الآمال.

٣- وأن الذات تقوى بعشق ما تؤمل ومن خلال سعيها إليه غير متوانيه وإقدامها عليه غير هيابة واقتحامها عليه غير هيابة واقتحامها كل عقبة في سبيله.

٤- الجهاد الدائم والكفاح المتصل تقوى به الحياة وتزداد وتنير في حين أن التردد والسكون إلى الدعة والخضوع تضعف الحياة وتطفئها.

٥- على الإنسان أن يخرج كل ما في فطرته من مواهب وأن يعتمد على نفسه، ويظهر ذاته في قوله وفعله وأن يحذر التقليد والاعتماد على الغير وأن يطلب ما عند الناس وينسى ما في فطرته من كنوز. وتتميز هذه المحاولة بكفاءتها النظرية، وهندستها التركيبية، وغناها بحشد وفير من معطيات العلوم الإنسانية الحديثة، وبراعتها في توظيف تراث المتصوفة والعرفاء والفلاسفة والمتكلمين والأصوليين والفقهاء، حتى عدها بعض الدارسين أول محاولة تامة لإعادة بناء اللاهوت الإسلامي على قاعدة استدنائية.(١٣)

المطلب الثالث: شعر محد إقبال:

عندما نتكلم عن محمد اقبال فإننا نذكر شخصية أدبية راقية تميزت بالإحساس المرهف النابع من المكنون النفسي المتحرر الذي يتسع عالمه الشعوري لأمةٍ بأكملها، فإقبال شاعر أولا، فالشعر هو الغالب عليه، ولكنه رجل مفكر في شعره، وليس بذلك الذي يعنى ببراعة التصوير ودقّة التعبير بمعزل عما يحمل ذلك الشعر من فكر سليم وعقل راجح وقلب متّقد، ولعل هذا سر انتشار شعر إقبال عالمياً ومعلوم أنَّ الشعر حين يترجم يفقد كثيراً من خصائصه، لكن شعر محمد إقبال لا يكتسب جماله من كونه كلاماً موزوناً مقفّى فحسب، بل من ذلك القبس الرباني الذي يسري فيه، والعمق الإيماني الذي يتلبّسه، والفكر المستنير الذي يسوقه. لذلك فليس من العجب أن تسمو مكانة هذا الشاعر وتسمو مكانة شعره في الأدب الإسلامي طالما كان صاحبه دائم التفكير بهم الأمة الاسلامية وشارد الفكر في مآزق دنيا المسلمين ويرى إقبال أن الأدب موهبة كبيرة من مواهب الله، وقوة عظيمة يحدث به صاحبه انقلاباً في المجتمع، وثورة فكرية يضرب بها الأوضاع الفاسدة، ويرى أيضاً أن الأدب في الشرق الإسلامي قد أصبح تتحكم فيه المرأة، فأصبح لا يتحدث إلا عنها، ولا يتغنى إلا بها، ولا يبحث إلا فيها.يقول (محمد إقبال): ((أسفاً للشعراء والرسامين وكتاب القصة في بلادنا، قد استولت على أعصابهم المرأة))[١٤].تقول مريم جميلة: ((في هوجة تفسخ المجتمع الإسلامي الذي زاد من تفسخه تفشي الهيمنة الغربية، وزاد من مرضه وتخلفه الاستعمار الغربي، وفي هوجة الفوضى والتشويش والعقم الحضاري والثقافي، ظهر وبقي العلامة الشاعر الفيلسوف محمد إقبال متميزًا أصيلاً في تاريخ الأدب الإسلامي الحديث كله)) وترى أن قصائده الشعرية الفلسفية التي نظمها منذ أكثر من خمسين عامًا لا زالت حية حتى الآن ورسالتها تلائم يومنا الحاضر تمامًا[١٥].وقال الدكتور أحمد مظهر – رئيس قسم اللغة العربية بجامعة البنجاب بلاهور– ((لم يكن إقبال شاعر مسلمي شبه القارة وحدهم أو شاعر العالم الإسلامي الشرقي وحده، وإنما كان من هؤلاء الآحاد الأفذاذ الذين قلما يجود الزمان بهم، فهو شاعر الإسلام وشاعر الشرق، وشاعر الإنسانية كلها))[١٦] وقال أيضاً: ((ولو كان إقبال شاعرًا نابغًا لكفاه، ولو كان فيلسوفاً مبدعاً لكفاه، ولو كان مصلحًا اجتماعيًّا أو زعيمًا سياسيًّاً لكفاه، ولكن الله سبحانه وتعالى قد وهبه شخصية جامعة لهذه الأوصاف النبيلة)).[١٧] وفي سنة ١٩٢٤م طبع أول مجموع شعري له باسم ((بانك درا)) يعني جرس القافلة، فكان إقبال الناس عليه عظيماً[١٨].

المطلب الرابع: مؤلفات إقبال وانتاجه الفكري والثقافي

يشكل (محمد إقبال) مدرسة ثقافية وفلسفية متكاملة وقد ورّث هذا التراث من خلال كتبه التي ألفها ودواوينه الشعرية ومقالاته التي نشرها في الصحف والمجلات، لذلك فقد وظف كثير من الباحثين أنفسهم في الترجمة لكتاباته، ولقد ترجمت جميع مؤلفاته إلى العربية شعراً ونثراً، ومن أهمّ كتبه: الكتابات باللغة الفارسية:

١- (أسرار خودي) (أسرار الذات) ألفه عام ١٩١٥ ويعد أشهر دواوين محمد اقبال

٢- (رموز بيخودي) (رموز نفي الذات) ألفه عام ١٩١٨

٣- (بيام مشرق) (رسالة المشرق) ألفه عام ١٩٢٣ وهي رد على ديوان الشاعر الألماني (جوته)

٤- (جاويد نامه) رسالة الخلود ألفه عام ١٩٣٢

٥- (بس جه بايد كرداي أقوام مشرق) ماذا ينبغي أن نفعل يا أمم الشرق ألفه عام ١٩٣٦ وهي منظومات تدعو المسلمين إلى الاتحاد لمقاومة الاستعمار الأجنبي. الكتابات باللغة الأوردية:

١- (بانك درا) صلصلة الجرس أو جرس القافلة ألفه عام ١٩٢٤ ويحتوي على حوالي ستين قصيدة.

٢- (بال جبريل) جناح جبريل ألفه عام ١٩٣٦

٣- (ضرب كليم) عصا موسى ألفه عام ١٩٣٧

٤- مراسلات اقبال ومقالاته طبع عام ١٩٤٤

٥- علم الاقتصاد ألفه عام ١٩٠٣الكتابات باللغة الانجليزية

١- تطور ما وراء الطبيعة في فارس ويسمى كذلك (تطوير الفكر الفلسفي في إيران) (رسالة ميونخ) ١٩٠٢

٢- تجديد التفكير الديني في الإسلام.[١٩] وتوفي محمد إقبال في ٢١ نيسان سنة ١٩٣٨م.

المبحث الثاني: دوافع التجديد عند محمد إقبال.

حري بنا أثناء البحث في حركة تجديد التفكير الديني التي قام بها محمد إقبال أن نبحث عن الدوافع والعناصر الفكرية والواقعية التي ساقت صاحب هذه الحركة إلى الكلام فيها، وتتعدد العوامل سابقة الذكر الخاصة بمحمد إقبال إلى دوافع وعوامل متنوعة كما يلي:

المطلب الأول: نظرة محمد إقبال إلى واقع المسلمين:

عندما نقرأ لمحمد إقبال ندرك الزاوية التي ينظر منها إلى الواقع، فهو مفكر أدرك أن لهذا الواقع من السلبيات ما جعل المسلم لا يستطيع أن يعيش فيه دون أن يتأثر بما فيه من أهواء وأغواء، فإقبال ينظر إلى المسلم وقد جعل الدنيا همه وتأثر بفتنتها وأهوائها، فانجرف في سيلها وسار في مسار شهواتها، ونسي هويته الإسلامية التي أكرمه الله تعالى بها، والتي جعلته أكرم مخلوق عند الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧] فمن هنا أخذت الدنيا فيها مأخذه فضعفت الهمم وشرعت قافلة الإيمان التي كانت في أوج اندفاعها جعلت تخلد إلى الراحة والعجز والكسل، فأصبح المسلم إنساناً ضعيفاً في الدنيا يلحظ نظرات الغير إليه حتى يستطيع تقييم نفسه، وينتظر من الغرب أن يتكرم عليه بالامتيازات كي يستطيع أن يجد لنفسه مكاناً في عصر الحضارة الغربية والتكنولوجيا الحديثة.[٢٠]

وحينما أراد إقبال أن يبين أثر تخلي المرء عن هويته وذاتيته ضرب مثلاً فقال:((كانت مجموعة من الكباش تعيش في مرعى وفير الكلأ عيشاً رغيداً، ولكنها أُصيبت بمجموعة من الأسود نزلت بأرض قريبة منها، فكانت تعتدي عليها وتفترس الكثير منها، فخطر ببال كبش كبير منها أن يتخذ وسيلة تريحها من هذا الخطر الداهم الذي يهددها، فرأى أن استخدام السياسة والدهاء والحيلة هو الوسيلة الوحيدة، فظل يتودد إلى هذه الأسود في حذر حتى ألفته وألفها، فاستغل هذه الألفة، وبدأ يعظ الأسود، ويدعوها إلى الكف عن إراقة الدماء، وإلى أن تترك أكل اللحم، وأخذ يغريها بأن تارك أكل اللحم مقبول عند الله، وأخذ يزين لها الحياة في دعة وسكون، ويقبح لها الوثب والاعتداء، حتى بدأت الأسود تميل إلى هذا الكلام، فأخذت الأسود تتباطأ في افتراس الكباش، فكانت النتيجة أن استرخت عضلاتها، وتثلمت أسنانها، وتقصفت أظافرها، وأصبحت لا تقوى على الجري، ولم تعد قادرة على الافتراس، وبذلك تحولت الاسود إلى أغنام .. لماذا؟ لأنها تخلت عن خصائصها وفقدت ذاتيتها....))[٢١] ويحصر إقبال علل التخلّف من نظريته إلى الواقع في أربعة عناصر ذاتية هي:

١– فساد العقيدة وتحوّل التوحيد الإسلامي إلى وثنية متسترة، مع انجذاب للأوهام.

٢ – الجهل المطبق بأساليب الحياة الناجحة والعلوم العملية وأساليب المدنية والتنظيم الاجتماعي.

٣ – الزهد في الحياة وانتشار الطريقة بانتشار الروح الجبرية والتواكلية.

٤ – التهافت لدى الشباب المتوثب على الحضارة الغربية والانبهار بقوتها ومفاتنها. هذه الأدواء أو الأمراض تشكل في رأي إقبال عوائق نفسية تحول دون الانبعاث والتجديد[٢٢]أما الشق الكبير الذي وقع ما بين النظر والتطبيق فقد كان له أثرٌ واضح في تخلف المسلمين، فاقتصر المسلمون من العلم بنظرياته وشكلياته وتركوا الجانب الآخر الذي يشكل عنصراً مهماً في رقيّ الأمم وهو تطبيق ما تعلموه من نظريات، سواءً كان ذلك في ميدان العلوم الشرعية أو العلوم الدنيوية، فرأينا الكثير من الناس يشتغل بالمطالعة ودراسة الكتب ولا يكترث لأن يتعرض للنفحات السحرية أو يقوم في آخر الليل فيناجي ربه ويشكي بثَّه وحزنه إليه ويتزود بنشاط روحي وإشراق قلبي وغذاءٍ فكري، فيكون ذلك عوناً له على النهوض بواقعه والرقي بنفسه وجماعته، يقول إقبال: ((اللهم اجرح أكباد الشباب بسهام الآلام الدينية، وأيقظ الآمال والأماني النائمة في صدورهم بنجوم سماواتك التي لا تزال ساهرة، وبعبادك الذين يبيتون الليل سجداً وقياماً، ولا يكتحلون بنوم، ارزق شباب الإسلام لوعة القلب، وارزقهم حبي وفراستي))[٢٣]

المطلب الثاني: الضعف الفردي والانحلال الجماعي

يرى إقبال أنَّ المسلم حين تردت أوضاعه واضمحلت أحوال بيئته وبَعُدَ عن دينه بدأ الضعف الإنساني يظهر جلياً، فصار المسلم اتكالياً، لا يهتم لقضايا عصره ولا يتابع هموم أمته ولا يكترث لما يجب أن يكون عليه من التقدم والحضارة والرقي. أصبح هذا المسلم عبارة عن مكنة تستخدم الآلات الأجنبية دون أن يسترعي انتباهه أنه أصبح عبداً لتكنولوجيا الغرب دون أن يقدر أن يصنع أي شيء منها، وهو يظن أنه أصبح إنساناً عصرياً، من هنا وجد بداخه ما يُسمى الضعف الشخصي فصار عاجزاً عن مواكبة ركب أسلافه في شتى الميادين. وانعكس هذا الشعور على الجماعة بأكملها فبدأ الانحلال الجماعي وأصبح العجز والضعف في الأمة مشكلة كبيرة تحتاج إلى مصلحين على مستوى فكري متقدم، كي ينهضوا بوضع الأمة الاسلامية من هذا المأزق الذي تعيشهمن هنا قام المفكر الدكتور محمد إقبال بمنهجه التجديدي يدعو إلى تجديد التفكير الديني عند المسلمين وفي هذا يقول:

وأرى شباباً واهن العزمات في لين الحرير
وُلِدت أمانيه فكان المهد مصرعها الأخير

المطلب الثالث: معرفة النفس الإنسانية

إن الله تبارك وتعالى قد كرّم الإنسان، وهذا التكريم هو التكريم المطلق بكل معانيه، فمن هذا المنطلق أخذ محمد إقبال على عاتقة دراسة النفس الإنسانية والغوص في أعماقها، والاعتداد بقيمتها، والاحتفاظ بكرامتها، وقد عامل نفسه بما نصح به غيره وفي قصيدة له في كتاب "جناح جبريل" يقول فيها: ((انزل في أعماق قلبك، وادخل في قرارة شخصيتك، حتى تكتشف سر الحياة، ما عليك إذا لم تنصفني وتعرفني لكن انصف نفسك يا هذا واعرفها، وكن لها وفياً، ما ظنك بعالم القلب وهو كله حرارة وسكر، وحنان وشوق، أما عالم الجسد فتجارة وزور واحتيال، إن ثروة القلب لا تفارق صاحبها، أما ثروة الجسد فظلّ زائل ونعيم راحل))[٢٤]

المطلب الرابع: حثُّ القرآن الكريم على النهوض بأمر هذا الدين

من أهم العوامل التي يرجع إليها الفضل في تكوين شخصية محمد اقبال وعقليته هو القرآن الكريم فقد كان لإقبال نظرة خاصة في القرآن الكريم وقد ذكرنا أن والده كان يقول له: يا ولدي إذا أردت أن تفهم القرآن الكريم فاقرأه كما لو أنه أنزل عليك. لكنه كان يدرك ان صلة المسلمين بكتابهم لم تكن بتلك القوية، وكأن المسلمين لا يدركون أن هذا الكتاب قد حوى حلولاً لشتى أصناف مشاكل الحياة الاجتماعية والخلقية والمعاشية، ومع كل ذلك فقد تخلى عنه المسلمون وأهملوه، فمن هنا رأينا أن العالم الكبير والحكيم الشهير والمؤلف العظيم، ضائع في بيته هذا القرآن، مهجور في داره، يزهد فيه أولاده ويستهين بقيمته أفراد أسرته، ويأتي رجل آخر من أقصى العالم فيغترف من بحر علمه ويتضلع من حكمه. فكان إقبال يريد من الأمة بأكملها أن تنظر إلى القران الكريم هذه النظرة، فتقتبس من علومه وهديه وإرشاده ما ينهض بها من واقعها المرير وينتشلها مما تعيشه من تخلف فكري وتردي حضاري. ولم يزل إقبال إلى آخر حياته يدعو المسلمين إلى التمسك بالقرآن الكريم، ويرى أنه لا بد للأمة من أجل تحقيق نهضتها الحضارية من أن تعود إلى كتابها المقدس الذي يدعو إلى التقدم والرقي والنهوض بأمر الدين والدنيا، فيجب على المسلم أن يعود إلى هذا الكتاب فيغوص في بحره، ويجوب في آفاقه، فيخرج بعلم جديد وإيمان جديد وقوةٍ جديدة، ذلك لأنه يشتمل على دستور كامل ومنظم للحياة، يقول إقبال:(إنك أيها المسلم لا تزال أسيراً للمتزعمين للدّين والمحتكرين للعلم، ولا تستمد حياتك من حكمة القرآن رأساً، إن الكتاب الذي هو مصدر حياتك ومنبع قوتك لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة، فتقرأ عليك سورة (يس)لتموت بسهولة، فوا عجبا! قد أصبح الكتاب الذي أُنزل ليمنحك الحياة والقوة، يتلى الآن لتموت براحة وسهولة))[٢٥]

المطلب الخامس: نظرة محمد إقبال إلى حقيقة الإيمان:

كان لإقبال نظرة فريدة للإيمان، فهو يرى أن الإيمان الحقيقي ليس هو الإيمان الجاف الخشيب الذي هو مجرّد عقيدة أو تصديق بسيط، بل هو مزيج من اعتقاد وحب، يملك على الإنسان قلبه ومشاعره وعقله وتفكيره وإرادته وتصرفه وحبه وبغضه، وعلى المؤمن حق الإيمان أن يكون قوي العاطفة شديد الإخلاص والإجلال لرسول الله صلى الله عليه وسلم، مقتنعاً بأن الاسلام هو الدين الخالص الذي لا تسعد الإنسانية إلا به، يقول:

في مقام التوحيد يشدو خيالي بصدى الحق من رجال الحال

إنما تدرك القلوب هداها بصفا الأحوال لا الأقوال[٢٦]

ويرى أيضاً أن المؤمن الحقيقي إنما يكون باتباعه صلى الله عليه وسلم والاقتداء به في كل أحواله وأطواره وتصرفاته ذلك أن لطف النبي صلى الله عليه وسلم وقهره كله رحمة، فلطفه رحمة لأوليائه، وقهره رحمة لأعدائه، وهو الذي فتح على الأعداء باب الرحمة وقال: لا تثريب عليكم اليوم، فنحن المسلمون من الحجاز والصين وإيران وأقطار مختلفة، نحن غيض من فيض واحدٍ، نحن أزها كثيرة العدد، واحدة الطيب والرائحة، فلماذا لا نحبه، ولا نَحِنُّ له ونحن بشر، وقد بكى لفراقه الجذع وحنت إليه سارية المسجد؟[٢٧]

المبحث الثالث: منطلقات تجديد التفكير الديني عند محمد إقبال:

حاول محمد إقبال أن يبني الفلسفة الإسلامية بناءاً جديداً، آخذاً بعين الاعتبار المأثور من فلسفة الإسلام، إلى جانب ما جرى على المعرفة الإنسانية من تطور في نواحيها المختلفة، ولقد صرّح إقبال أنه تعلّم من الفلسفة القديمة أن ينتقد أسسها التي قامت عليها أولاً، وليس بعيدٌ ذلك اليوم الذي سيكتشف فيه كلٌ من الدين والعلم اتفاقاً متبادلاً بينهما لم يكن واضحاً أو مترقباً من قبل.[٢٨] ولا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا أن التفكير الفلسفي ليس له حدٌ يتوقف عنده، فالمعرفة تتقدّم يوماً بعد يوم، وكلّما تقدمت وفتحت مسالك جديدة للفكر أمكن الوصول إلى آراء أخرى غير التي أثبتها العلم المعاصر، وقد تكون أصحّ منها. لقد بحث (محمد إقبال) منطلقات تجديد التفكير الديني في الإسلام فوجدها تمثّل في مصادر الأحكام الشرعية الأربعة (القرآن الكريم، والحديث الشريف، والإجماع، والقياس)، فهذه المصادر تشكّل ركائز مهمة في حركة تجديد التفكير في الإسلام؛ ذلك لأن الفرد حين يدرس هذه الأصول الأربعة وما ثار حولها من خلاف فإن الجمود المزعوم في أساليب

التفكير يتبخّر، ويبدو للعيان إمكان حدوث تطورات جديدة، ورأى إقبال أن المسلمين عليهم أن ينهضوا بأمر هذا الدين ويأخذوا التجديد من هذه المنطلقات، وهاك المنطلقات بالتفصيل.

المطلب الأول: القرآن الكريم:

وليس من شكٍ في أن القرآن يقرر بعض المبادئ والأحكام العامة في التشريع وبخاصة فيما يتعلق بالعلاقات بين الناس وما يُسمى في ميدان الفقه بالمعاملات وهي التي تنظم العلاقات الإنسانية فيما بين البشر، وقد اخذت هذه التشريعات جزءاً مهماً جداً في التشريع الإسلامي؛ ذلك لأنها تعتبر الركن الركين للحياة الاجتماعية. ولكن لم كانت هذه القواعد جزءاً من تنزيل منتهى غايته أن يحقق للإنسان حياةً سامية رفيعة؟ يجيب المفكر محمد اقبال عن هذا السؤال من تاريخ المسيحية، حيث يبين أن المسيحية ظهرت بمثابة رد فعل قوي لروح التشريع المتجلية في اليهودية، ولا شك أن المسيحية عندما رسمت مثلاً أعلى لحياة أخرى فإنها نجحت في تهذيب الحياة وطبعها بطابع روحي، ولكن الخطأ الذي حصل أنها قصرت اهتمامها على الفرد ولم تعط أهمية لدور الجماعة المهم الذي يفوق دور الفرد بكثير من الأهمية، من هنا فقد أصبحت عاجزة عن إدراك ما للعلاقات الإنسانية الاجتماعية المتشابكة من قيمة روحية. وإنَّ هذا الأمر غير موجود في الإسلام بنفس هذه الصورة، فالإسلام نظر إلى الفرد والمجتمع نظرة تختلف عن المسيحية، فهو يرى وجوب الجمع بين الدين والدولة وبين الأخلاق والسياسة في تنزيل واحد.(٢٩) ومن الجلي الواضح في هذا الصدد أن كتاب الإسلام المقدس، بما له من هذه النظرة لا يمكن أن يكون خصماً لفكرة التطور وبالعكس تماماً فهو يحض المسلمين دائماً على التطور ومواكبة العصر مع معرفة ما للتاريخ والتراث من قيمة. بهذه النظرة الجوهرية في التعاليم الأساسية للقرآن ينبغي للمذهب العقلي الحديث أن يتناول البحث في نظمنا القائمة، فليس في استطاعة أمة أن تتنكر لماضيها تنكراً تاماً، لأن الماضي هو الذي كيّف شخصيتها الحاضرة. ومن هنا نرى أن الإسلام دين غير إقليمي، وغايته أن يقيم للإنسانية جمعاء مثالاً للإلفة والانسجام باجتذاب معتنقيه المنتسبين إلى أجناس متنافرة، ثم تحويل هذه المجموعة الذرية إلى أمة لها شعورها بذاتها وكيانها الخاص ولم يكن تحقيق هذا عملاً سهلاً ولكن الإسلام بما له من نظم رسمت على خير وجهٍ فقد وُفّقَ إلى حد كبير جداً إلى خلق ما يشبه إرادة عامة وضميراً جماعياً في هذه الأوفاض من الناس(٣٠)ومن المعلوم أن المبادئ القرآنية الرحبة أبعد ما تكون عن سدّ الطريق على التفكير الإنساني والنشا التشريعي، وتعمل كمنبه للفكر الإنساني، ولقد كان جلّ اعتماد الرعيل الأول من فقهاء الأمة الإسلامية على هذه المبادئ القرآنية، وكلُّ دارس للتاريخ الإسلامي يدرك تماماً أن أكثر انتصارات الإسلام بوصفه قوة اجتماعية وسياسية إنما كان الفضل فيه لما تحلّى به هؤلاء الفقهاء من عمق ودقة في التشريع. ومع أن الفقهاء يقولون بتقليد المذاهب الفقهية المشهورة لكنهم لم يحتكروا الاجتهاد لأنفسهم، وبما أن الأحوال قد تغيرت والعالم الإسلامي اليوم يتأثر بما يواجهه من قوى جديدة أطلقها من عقالها تطوّر الفكر الإنساني تطوراً هائلاً في جميع مناحيه فإن إقبال لا يرى موجباً للتمسك في المسألة برأي واحدٍ معين، حيث أن أصحاب المذاهب الفقهية لم يدّع أحدٌ منهم أن تفسيره للأمور واستنباطه للحكم هو آخر كلمة تقال فيه، بل الرأي الأصح عند إقبال هو ما يُنادي به الجيل الحاضر من أحرار الفكر في الإسلام من تفسير أصول المبادئ التشريعية تفسيراً جديداً على ضوء تجربتهم وعلى هدي تقلبات العصر من أحوال متغايرة هو الرأي الصحيح، وله ما يسوغه في كل وقت.(٣١) ومن هذا المنطلق فإن المجتمع العصري بما فيه من كفاح مرير بين الطبقات يجب أن يحملنا على التفكير بأسلوب جديد انطلاقاً من القرآن الكريم، ولو أننا درسنا شريعتنا بالنسبة للانقلاب المنتظر في الحياة الحديثة فإنه من المرجّح أن نكشف في أصول التشريع عن نواح جديدة لم تكشف لنا بعد، مما يمكن أن يبعث فينا إيماناً جديداً بحكمة هذه المبادئ، فنرى من هذا أن من ميزات الشريعة الإسلامية أنها تحمل عوامل بقائها ومنافحتها عن نفسها في داخلها، لا سيما أن صاحب الشريعة تعهّد بحفظها.(٣٢)

المطلب الثاني: السنة النبوية:

أحاديث الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم هي الأصل الثاني للشريعة المحمدية، كما أنه لا يمكن أن نغفل دور الحديث الشريف في الدعوة إلى الرقي والتحضر في الإسلام، وكذلك لا يمكن أن ننكر أن رجال الحديث قد أدوا أجل خدمة للشريعة الإسلامية بنزوعهم عن التفكير النظري المجرد إلى مراعاة ما للأحوال الواقعة من أثر وشأن، ولو أننا واصلنا دراسة ما كتب عن الحديث وعنينا بتقصي ما تدل عليه الآثار من الروح التي كان يفسر بها النبي صلى الله عليه وسلم رسالته فقد تتجلي هذه الدراسة عن فائدة كبرى في فهم قيم الحياة في مبادئ التشريع التي صرح بها القرآن.(٣٣) ومن المؤكد أنه لا يمكن أن تكون السنة النبوية عائقاً أمام مَن يبتغي التجديد في أسلوب التفكير، بل على العكس، فكم من أحاديث وصلتنا عن النبي صلى الله عليه وسلم تحضّنا على النهوض بأمر الدين والدنيا معاً. ويرى إقبال ضرورة أن نرق بين الأحاديث التي تتضمن أحكاماً تشريعية والأحاديث التي ليس لها طابع تشريعي، وفيما يتعلّق بالنوع الأول ينشأ لدينا سؤال بالغ

الأهمية هو معرفة النسبة التي يتضمنها هذا النوع من عادات كانت للعرب قبل الإسلام فتركها الإسلام دون تغيير، وأخرى أدخل فيها النبي تعديلاً. وكمثال للأمور التي كانت من عادات العرب وأقرّها النبي تعظيم الأشهر الحرم، ومثال النوع الثاني التي أدخل النبي عليها تعديلاً أن العرب كانت عادتهم انه إذا تزوّج أحدهم قالوا له (بالرفاه والبنين) فنهى النبي عن ذلك وأمر أن يباركوا له. هذه التفرقة ليست من الأمور السهلة؛ لأن المؤلفين المتقدمين لا يشيرون دائماً إلى عرف الجاهلية وعاداتها، وليس من الممكن أن نتبين أن ما أبقى عليه الإسلام من هذه العادات بقبول النبي لها تصريحاً أو ضمناً قد أُريد بها أن تكون ذات صفة عامة في تطبيقها. يرى إقبال في هذه المسألة أن طريقة الأنبياء في التعليم تأخذ بعين الاعتبار العادات والأحوال والخصائص المميزة للناس الذين بُعث إليهم على سبيل التخصيص، أما النبي الذي يستهدف مبادئ عامة شاملة فإنه لا يستطيع أن يبلّغ مبادئ عامة مختلفة إلى الشعوب المختلفة، ولا أن يترك لهذه الشعوب أن يضع كلٌ منها قواعد السلوك الخاصة به، والطريقة التي يتبعها النبي أن يُعلّم أمة معينة، ويتّخذ منها نواة لبناء شريعة عالمية. والنبي في هذه الحالة يؤكد المبادئ التي تنهض عليها الحياة الاجتماعية للبشر جميعاً، ويطبّقها على حالات واقعية في ضوء العادات المميزة للأمة التي أُرسل إليها، وأحكام الشريعة الناتجة عن هذا التطبيق هي – برأي إقبال – يمكن أن يُقال إنها تخصّ هذه الأمة، ولما كانت هذه الأحكام ليست مقصودة لذاتها فلا يمكن أن تُفرض بحرفيتها على الأجيال المقبلة.[٣٤] هكذا فهم إقبال عنصر التجديد في السنة النبوية، وأنه من غير الممكن أن تكون السنة النبوية مانعاً من تجديد الحياة والرقي بها بمجالاتها كافة، لذا ومن هذا المنطلق وجب على المشتغلين في ميدان علم الحديث أن يمحّصوا ويبينوا لجمهور الناس تلك الأحاديث التي تحضّ على العمل ومواكبة المسلم لمقتضيات عصره، ويأخذ بعين الاعتبار تطور الحياة البشرية ونمو المعارف الحديثة، وهذا الفهم وحده هو الذي يعنينا عندما نحاول تأويل أصول التشريع تأويلاً جديداً.

المطلب الثالث: الإجماع:

الإجماع هو ((اتفاق المجتهدين من أمة محمد عليه الصلاة والسلام بعد وفاته في عصر على حكم شرعي لم يرد فيه دليل))[٣٥] والإجماع عند إقبال الذي هو الأصل الثالث من أصل التشريع الإسلامي قد يكون من أهم الأفكار التشريعية في الإسلام، وهو يرى أنه من الغريب أنَّ هذه الفكرة – في حين أن الخلاف اشتدّ بشأنها في صدر الإسلام وأثارت الكثير من الجدل العلمي – ظلّت تقريباً مجرّد فكرة لا غير، وقلّما اتخذت شكل نظام دائر في بلد من بلاد الإسلام. ويرى إقبال أنه ربما كان تحوّل الإجماع إلى نظام تشريعي ثابت كان يتعارض مع المصالح السياسية للحكم المطلق الذي نشأ في الإسلام بعد عهد الخليفة الرابع مباشرةً، حيث كان الخلفاء بعد عصر الخلافة الراشدة يرون أن مصلحتهم تتحقق بتفويض الاجتهاد إلى أفراد من المجتهدين أكثر مما تتحقق بتشجيع تأليف جماعة دائمة من المجتهدين ربما تصبح صعبة المراس عليهم.[٣٦] لكن الجديد في الموضوع أن نجد أنّ ضغط العوامل العالمية الجديدة وتجارب الشعوب الأوربية في السياسة قد جعلت تفكير المسلمين في العصر الحديث يتأثّر بما لفكرة الإجماع من قيمة، وما تنطوي عليه من إمكانات، لذا فإن نموذج الروح الجمهورية في البلاد الإسلامية وقيام جمعيات تشريعية فيها بالتدريج يمثّل خطوة عظيمة في سبيل التقدّم. وهو يرى ضرورة انتقال حق الاجتهاد من الأفراد إلى هيئات تشريعية إسلامية، لأن ذلك هو الشكل الوحيد الذي يمكن أن يتخذه الإجماع في الأزمنة الحديثة؛ لأن هذا الانتقال يكفل للمناقشات التشريعية الإفادة من آراء قوم من غير رجال الدين ممن يكون لهم بصر نافذ في شؤون الحياة.[٣٧] وبهذه الطريقة يتسنّى لنا أن نبعث القوة والنشاط فيما خيّم على نظمنا التشريعية من سبات، ونسير بها في طريق التطور، وهو يتوقّع لمثل هذه الهيئة التشريعية أن تخطئ خطأً فاحشاً في تفسير الشريعة؛ لأنها قد تتألف من رجال ليست لهم دراية بوقائع التشريع الإسلامي، ولكنه يستبعد أن يكون الحل تأليف لجنة دينية مستقلة تكون لها سلطة الرقابة. ويرى أن العلاج الوحيد الناجح للتقليل من وقوع الأخطاء في التأويل يتمثّل في أمرين:

أولهما: أنه يجب أن يكون علماء الدين الإسلامي جزءاً في الجمعية التشريعية الإسلامية؛ ليكونوا عوناً وهدياً في حرية المناقشة في أمور التشريع.

ثانيهما: إصلاح نظام التعليم القانوني الحاضر في الأقطار الإسلامية، وتوسيع مداه، وربطه بالدراسة الرشيدة للفقه القانوني الحديث.[٣٨]

المطلب الرابع: القياس (الاجتهاد):

القياس هو الأصل الرابع من أصول الفقه الإسلامي، وهو استخدام التعليل القائم على تشابه بين الحالات في التشريع. وهو في اصطلاح الأصوليين: ((إلحاق أمر ليس له نصّ صريح في الكتاب أو السنة أو الإجماع بأمر له نصّ في أحدها لاتحاد العلة في كلٍّ من المقيس والمقيس عليه)).[٣٩] ففي كثيرٍ من الحالات لا يجد المجتهد شيئاً من الكتاب والسنة يهتدي به للحكم على أمرٍ ما، فلا يبقى أمامه من سبيلٍ يوى تحكيم العقل في الفتيا، ذلك لأن سير الحياة المتشابك المعقّد لا يمكن أن يخضع لقواعد مقررة جامدة تستنبط استنباطاً منطقياً من أفكار عامة، فالأحداث متولدة يوماً عن يوم، والكثير منها لا قاعدة له ينطوي تحتها، فما الحل تجاه هذه المستجدات؟إن الحل الوحيد هو أن يبدع

الإسلام نظاماً يضمن لهذه المستجدات أن تصنّف تصنيفاً يجعل منها أداة بناء وتطوير في المجتمع لا أداة جمود وخمول، وهذا النظام هو القياس. فالقياس كان يمثّل ستاراً يتوارى وراءه رأي المجتهد، فأصبح على مرّ الأيام مصدر حياة وحركة في التشريع الإسلامي. يرى إقبال أن فتح باب الاجتهاد في الأحكام هو ضرورة ملحة تلميها علينا حاجات العصر، لا سيما أن القياس هو أهمّ أنواع الاجتهاد، ويُناقش إقبال أولئك الذين يتذرّعون لإغلاق باب الاجتهاد لصعوبته في أيامنا وسهولته في زمن السلف الصالح.يجيب إقبال على الاعتراض السابق بأنّهم إن كانوا يريدون أن الاجتهاد كان أسهل على العلماء السابقين في حين أن صعاباً كثيرة تزداد في طريق مَن جاء بعدهم من العلماء فهذا قول هراء؛ إذا الأمر لا يحتاج إلى كبير فهم لنرى أن الاجتهاد أيسر لعلماء اللاحقين، فتفاسير القرآن وشروح الحديث قد تعددت إلى حدٍّ جعل بين يدي مَن يريد الاجتهاد اليوم من المادة أكثر مما يحتاج.[٤٠]ويرى إقبال أنَّ الاجتهاد له شأن مهم في معاونة المسلم – من إسلامه لا من مصدر أجنبي عنه – ليتابع تطور العالم وتغييره، وفي حديث "إقبال" عن الاجتهاد يوضح إمكان وقوعه الآن، أكثر من التدليل على وجوده أو غايته، فذلك أمر بدهي.ويرى إقبال أن التعمق في درس كتب الفقه والتشريع الهائلة العدد لا بد أن يجعل الناقد بمنجاة من الرأي السطحي الذي يقول بأن شريعة الإسلام شريعة جامدة غير قابلة للتطور. ومن سوء الحظ أن جمهور المسلمين المتمسكين بالقديم في البلدان الإسلامية لم يستكملوا الأهلية بعد لدرس الفقه دراسة نقدية، ومن المرجح أن مثل هذه الدراسة إذا حدثت تسيء معظم الناس وتثير خلافات مذهبية.[٤١]

ولقد أبدى إقبال بعض الملاحظات حول فكرة الاجتهاد كما يلي:

أولاً: ينبغي أن نذكر منذ ظهور الإسلام إلى قيام الدولة العباسية تقريباً لم يكن قد دون من شرائع الإسلام سوى القرآن.

ثانياً: مما هو جدير بالملاحظة أنه منذ حوالي منتصف القرن الرابع الهجري ظهر ما لا يقل عن تسع عشرة مدرسة من مدارس الفقه والرأي الشرعي في الإسلام، وهذه الحقيقة وحدها كافية في بيان مقدار ما بذل فقهاؤنا المتقدمون من جهد موصول لمواجهة ما تستلزمه حضارة نامية، وكان لا بد لهؤلاء الأصوليين – مع امتداد الفتح وما نشأ عنه من اتساع نظرة الإسلام– من أن يصطنعوا رأياً في الأمور أكثر رحابة، وأن يدرسوا الظروف المحلية للحياة وعادات الشعوب الجديدة التي دخلت في حظيرة الإسلام، والدرس الدقيق لمدارس الرأي الفقهي على اختلافها في ضوء التاريخ السياسي والاجتماعي المعاصرين يكشف عن أن المشرعين تحولوا شيئاً فشيئاً عن طريقة الاستنباط في تأويلهم إلى طريقة الاستقراء.

ثالثاً: عندما ندرس أصول الفقه الإسلامي الأربعة المتفق عليها، وما ثار حولها من خلاف، فإن ذلك الجمود المزعوم عن مذاهبنا المعترف بها يتبخر، ويبدو للعيان إمكان حدوث تطور جديد، وإذا كانت عقيدة ختم الرسالة حافزة للإنسان المعتقد بها على "عدم الانتظار" والترقب، والبدء بعمل الإنسان كإنسان –وهو العمل الفكري– فإن مبدأ الاجتهاد يدفع الإنسان للتفكير، خاصة في مجال التعاليم الدينية، وإخضاع أحداث الحياة المتجددة، المستمرة في التجدد، وتكييفها بكيفية إسلامية[٤٢].وبعد عرض ما تقدّم يرى إقبال أنه ليس في أصول تشريعنا ولا في بناء مذاهبنا ما يسوّغ نزعة الجمود الحاضرة، وأنّ العالم الإسلامي وهو مزوّد بتفكير عميق نفّاذ ينبغي عليه أن يُقدم في شجاعة على إتمام التجديد الذي ينتظره.

الخاتمة

إنّ الحديث عن زاوية من منهج هذا الرجل أو عن فكره أو فلسفته لهو أكبر من أن يتسع لمجلد ضخم، فكيف ببحث بسيط كهذا، لقد كانت حياة محمد إقبال مؤرّقة بهوم الأمة، وكان من أهم رواد الحركة الإسلامية في شبه القارة الهندية. لقد كان محمد إقبال دقيقاً عندما عبر عن حركته الفكرية بـ (تجديد التفكير الديني) دون التعبير بـ (الإصلاح الديني) لأن أية محاولة إنسانية تدور في محيط الإسلام لا تتعلق بتعديل مبادئه طالما أن مصدر هذا الدين هو القرآن، وهو له موصوف بالجزم والأبدية، وأية حركة إصلاحية في الإسلام بعد ذلك إنما تكون في دائرة التفكير الإسلامي، وفي دائرة فهم المسلمين لمبادئه، وإصلاح التفكير الديني يقوم على طلب تغيير الوضع الذي وصل إليه المسلم الآن، وهو وضع الضعيف المتهيب من الحياة والنافر من الواقع.[٤٣] ونستطيع بعد دراستنا لفكرة تجديد التفكير الديني في الإسلام عند إقبال أن نستخلص أساسين يرجع إليهما المنطلق العام الذي انطلق منه إقبال في هذه الدعوة والمنهج العام الذي اعتمده:

الأول: الاهتمام بواقع المسلمين في كل مكان: إذ تظل رابطة العقيدة هي العروة الوثقى التي تربط محمد إقبال بالمسلمين، ونعني به منطلق العقيدة، لذا فقد كانت حركة التجديد الديني لدى إقبال نابعة من الإسلام ذاته بمصادره التشريعية (القرآن الكريم والسنة النبوية والإجماع والقياس)، وكان يتألّم لواقع العرب والمستعمر يجثم على صدره، والآفات تتناوشه من كل جهة، بينما الأمم الأخرى تتقدّم وتترقّى، فاستطاع أن يستخلص من مبادئ الإسلام حركة تجديدية تبني نهضة للأمة الإسلامية إن عملوا بها.

الثاني: بناء الأمة الإسلامية الواحدة: فإقبال يرى أن الدعوة إلى الوحدة الإسلامية من أهمّ أهداف رسالة الإسلام، أما مقومات هذه الأمة وأساس تكوينها وبناء حضارتها فهي العقيدة الصافية، وليس غيرها من الدعوات القومية والوطنية، وباعتبار أن الناس قد انبهروا بالحضارة

الغربية في حين أنّه قد درسها وعرف عُجَرَها وبجرها أراد أن يوضح للمسلمين أنَّ دينهم يحضّهم على الرقي والحضارة قبل أن تأتي الحضارة الغربية بشيء من ذلك. ومن الممكن أن نضيف إلى ما سبق بعض النتائج التي توصّل إليها الباحث:

١- إن المكانة التي يحتلّها محمد إقبال في الحركة الإصلاحية في العالم الإسلامي الحديث تحددها طبيعة الإصلاح الذي دعا إليه، ونوع التجديد الذي نادى به، كما تحددها طبيعة المرحلة التاريخية التي عاش فيها، والظروف التي شهدتها هذه المرحلة، وكل ذلك شهد لهذه الحركة بالريادة في مجال الإصلاح الفكري في الإسلام.

٢- لم تكن فلسفة الإصلاح والتجديد لدى إقبال على سنّة سابقيه أو الذين عاصروه، فمحاولته تقوم على إعادة الاعتبار إلى الإسلام، وإبعاده عن الركود والجمود، وليس إصلاح الدين تغييراً في قيمه ومبادئه السامية.

٣- إنَّ قوة الفكر الإصلاحي عند محمد إقبال تكمن في قدرته على الوصول إلى رؤية فلسفية للحياة والوجود والإنسان والتاريخ، وقد أدت إلى تبلور مفهوم حركي للتجديد في التفكير الديني، وبلوغ فلسفة تميّزت بالنسقية والتكامل بين وحداتها وعناصرها.

٤- هذه المحاولة التي قام بها إقبال في الإصلاح والتجديد عدّلت بعض المفاهيم الإسلامية، وقدّمت الإسلام الإيجابي الحيوي، كما تصدّت لتيارات الإلحاد التي جاء بها الفكر الغربي الذي دخل العال الإسلامي مع دخول الحضارة الأوربية الحديثة إلى حياة المسلمين وتأثّرهم بها.

توصيات الباحث:

١- من المعلوم ان مهمة المفكّر الأولى هي البحث عما يواكب تطورات صره وينهض بأمر أمته، لذا فإنه من الضروري أن يلتفت دعاة الإصلاح في عصرنا الحاضر إلى ما ينهض بأمر الناس متماشياً مع ضرورات الحياة وتطور أساليب المعيشة.

٢- أثناء الدراسة البسيطة التي أجراها الباحث للفكرة التجديدية لدى إقبال فإنه يرى ضرورة إشباع هذه الفكرة بالبحث والتقصّي، المراجع

١. الاتجاهات الحديثة في الإسلام، جيب هـ.أ.ر، ترجمة: هاشم الحسيني، دار مكتبة الحياة ببيروت، د/ط، ١٩٦٦م.
٢. أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، سيد بن حسين بن عبد الله العفاني أبو التراب، دار ماجد عسيري للنشر والتوزيع بجدة ط١، ٢٠٠٤م.
٣. إقبال العرب على دراسات إقبال، جمع د. أحمد مظهر، الفكر المعاصر ببيروت، ط١، ١٩٨٧م.
٤. البرهان في أصول الدين، عبد الملك الجويني، دار الكتب العلمية ببيروت، ط١، ١٩٧٧م.
٥. تجديد التفكير الديني في الإسلام، محمد إقبال، ترجمة عبّاس محمود، دار الهداية للطباعة، ط٢، ٢٠٠٠م.
٦. تفعيل مقاصد الشريعة في معالجة القضايا المعاصرة للأمة، الهادي بريك، دار الغيث بالرياض، ط٢، ٢٠٠٠م.
٧. حسن الترابي وفساد نظرية تطور الدين، عبد الفتاح إبراهيم، دار بيت الحكمة بالقاهرة، ط١، ١٩٩٥م.
٨. ديوان محمد اقبال، سيد عبد الماجد الغوري، دار ابن كثير بدمشق، ط٣، ٢٠٠٧م.
٩. رسالة الخلود، محمد إقبال، ترجمة محمد السعيد جمال الدين، مطابع سجل العرب، د/ط.ت.
١٠. روائع إقبال، أبو الحسن علي الحسني الندوي، دار الفكر بدمشق، ط١، ١٩٦٠.
١١. الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، محمد البهي، مكتبة وهبة بالقاهرة، ط٤، ١٩٨٧م.
١٢. الفصول في الأصول، أحمد بن علي الرازي، وزارة الأوقاف الكويتية، ط٢، ١٩٩٤م.
١٣. فيض القدير شرح الجامع الصغير، محمد بن عبد الرؤوف المناوي، دار الكتب العلمية ببيروت، ط١، ١٩٩٤م.
١٤. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر ببيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
١٥. محمد إقبال (سيرته وفلسفته وشعره من منظومة أسرار خودي)، عبد الوهاب عزام، مطبوعات الباكستان، د/ط، ١٩٥٤م.
١٦. محمد إقبال مفكراً إسلامياً، محمد الكتاني، دار الاعتصام، ط١، د/ت.
١٧. مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، دار الكتاب العربي ببيروت، ط١، ١٩٦٧م.
١٨. مريم جميلة، الإسلام في مواجهة الغرب، ترجمة: طارق خاطر، دار المختار الإسلامي، ط١، سنة ١٩٩٢م.
١٩. مشكلتا الوجود والمعرفة في الفكر الإسلامي الحديث عند كلٍ من الإمام محمد عبده ومحمد إقبال، عطية ببيروت، د/ط، ١٩٨٥م.
٢٠. المصباح المنير، أحمد بن علي الفيومي، المكتبة العلمية ببيروت، ط٢، ١٩٩٦م.
٢١. موجز تاريخ تجديد الدين وإحياؤه، أبو الأعلى المودودي، دار الفكر ببيروت، ط٣، ١٩٦٨م.
٢٢. ينظر كتاب الخلاصة في فقه الأقليات، علي بن نايف الشحود، مكتبة عين الجامعة، ط١، ٢٠٠٧م.

هوامش البحث

(١) ينظر: ط٣، ١٤١٤هـ، ص٢٠٢، ومختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، دار الكتاب العربي ببيروت، ط١، ١٩٦٧م، ص٩٥.
(٢) ينظر: المصباح المنير، أحمد بن علي الفيومي، المكتبة العلمية ببيروت، ط٢، ١٩٩٦م، ص٩٢.
(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير، محمد بن عبد الرؤوف المناوي، دار الكتب العلمية ببيروت، ط١، ١٩٩٤م، ١٤/١.
(٤) موجز تاريخ تجديد الدين وإحياؤه، أبو الأعلى المودودي، دار الفكر ببيروت، ط٣، ١٩٦٨م، ص١٣.
(٥) فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي، ١٤/١.
(٦) موجز تاريخ تجديد الدين وإحياؤه، المودودي، ص٢٥.
(٧) حسن الترابي وفساد نظرية تطور الدين، عبد الفتاح إبراهيم، دار بيت الحكمة بالقاهرة، ط١، ١٩٩٥م، ص٥٢.
(٨) ينظر: مشكلتا الوجود والمعرفة في الفكر الإسلامي ببيروت، د/ط، ١٩٨٥م، ص٣٩.
(٩) ينظر: ديوان محمد اقبال، سيد عبد الماجد الغوري، دار ابن كثير بدمشق، ط٣، ٢٠٠٧م، ٧٦/١.
(١٠) رسالة الخلود، محمد إقبال، ترجمة محمد السعيد جمال الدين، مطابع سجل العرب، د/ط.ت، ص١.
(11) محمد إقبال (سيرته وفلسفته وشعره من منظومة أسرار خودي)، عبد الوهاب عزام، مطبوعات الباكستان، د/ط، ١٩٥٤م، ص١٦.
(١٢) ديوان محمد اقبال، سيد عبد الماجد الغوري، ص٧٧.
(١٣): د/ط، ١٩٦٦م، ص٨٩، والاستدناء: مصطلح يعني به جيب التوحيد الذي يؤكد استدناء الإله من كل مكان في الطبيعة.
(١٤) ينظر: روائع إقبال، أبو الحسن علي الحسني الندوي، دار الفكر بدمشق، ط١، ١٩٦٠، ص١٥-١٦.
(١٥) مريم جميلة، الإسلام في مواجهة الغرب، ترجمة: طارق خاطر، دار المختار الإسلامي، ط١، سنة ١٩٩٢م، ص١٦٦-١٦٧.
(١٦) إقبال العرب على دراسات إقبال، جمع د. أحمد مظهر، نقلاً عن كتاب "محمد إقبال فكره الديني والفلسفي"، محمد العربي بوعزيزي ط١، ١٩٨٧م، ص٣.
(١٧) أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، سيد بن حسين بن عبد الله العفاني أبو التراب، ط١، ٢٠٠٤م، ٢٩٢/٢.
(١٨) ينظر المرجع السابق، ٢٢/١
(١٩) ينظر: ديوان محمد اقبال الأعمال الكاملة، سيد عبد الماجد الغوري، ٢٥/١.
(٢٠) ديوان محمد اقبال الأعمال الكاملة، قصيدة جواب الشكوى، ١/ ١٠٥
(٢١) ينظر كتاب الخلاصة في فقه الأقليات، علي بن نايف الشحود، مكتبة عين الجامعة، ط١، ٢٠٠٧م، ٢٣/١
(٢٢) محمد إقبال مفكراً إسلامياً، محمد الكتاني، دار الاعتصام، ط١، د/ت، ص٣٥.
(٢٣) ينظر: ديوان محمد إقبال، الأعمال الكاملة، ص٤٠.
(٢٤) ديوان محمد إقبال الأعمال الكاملة، قصيدة جواب الشكوى، ص٣٦.
(٢٥) ديوان محمد إقبال، ديوان: (أرمغان حجاز) هدية الحجاز، نقلا عن كتاب روائع اقبال، ص٣٢.
(٢٦) ديوان: (والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق)، ص٣٥٤.
(٢٧) ينظر: ديوان محمد إقبال، سيد عبد الماجد الغوري، ص٣١.
(٢٨) ينظر: محمد إقبال (سيرته وفلسفته وشعره من منظومة أسرار خودي)، عبد الوهاب عزّام، ص١٩٧.
(٢٩) ينظر: تجديد التفكير الديني في الإسلام، محمد إقبال، ترجمة عبّاس محمود، دار الهداية للطباعة، ط٢، ٢٠٠٠م، ص١٩٧.
(٣٠) ينظر: تجديد التفكير الديني في الإسلام، محمد إقبال، ص١٩٨.
(٣١) ينظر: تجديد التفكير الديني في الإسلام، محمد إقبال، ص١٩٩.
(٣٢) ينظر: تفعيل مقاصد الشريعة في معالجة القضايا المعاصرة للأمة، الهادي بريك، دار الغيث بالرياض، ط٢، ٢٠٠٠م، ص٤.
(٣٣) ينظر: تجديد التفكير الديني في الإسلام، محمد إقبال، ص٢٠٥.
(٣٤) ينظر: تجديد التفكير الديني في الإسلام، محمد إقبال، ص٢٠٣.
(٣٥) الفصول في الأصول، أحمد بن علي الرازي، وزارة الأوقاف الكويتية، ط٢، ١٩٩٤م، ٢٥٧/٣.
(٣٦) ينظر: تجديد التفكير الديني في الإسلام، محمد إقبال، ص٢٠٥.
(٣٧) ينظر: تجديد التفكير الديني في الإسلام، محمد إقبال، ص٢٠٦.
(٣٨) ينظر: تجديد التفكير الديني في الإسلام، محمد إقبال، ص٢٠٨.
(٣٩) البرهان في أصول الدين، عبد الملك الجويني، دار الكتب العلمية ببيروت، ط١، ١٩٧٧م، ٦/٢.
(٤٠) ينظر: تجديد التفكير الديني في الإسلام، محمد إقبال، ص٢٠٩.
(٤١) ينظر: تجديد التفكير الديني في الإسلام، محمد إقبال، ص٢١٣.
(٤٢) ينظر: تجديد التفكير الديني في الإسلام، محمد إقبال، ص١٩٥.
(٤٣) ينظر: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، محمد البهي، مكتبة وهبة بالقاهرة، ط٤، ١٩٨٧م، ص٤٠٩-٤١٠.